الفصل العشرون

فـؤاد زكريـا

وفلسفته العلمية.. العملية

الفصل العشرون

فـؤاد زكريـا
وفلسفته العلمية.. العملية

أولاً: مكانته الفكرية

يُعـد د. فـؤاد زكريـا (1927 - 2010م) واحدًا من رواد الفكر الفلسـفي المصري والعربي المعاصر، وقد تميز فكره بنزعة تنويرية تحض على إعمال العقل والتفكير العلمـي في نواحي الحياة، ولم تخلو هذه النزعة التنويرية لديـه من اتجـاه نحو نقد كل الصور السـلبية في حياتنا الفكرية. وقد نجح من خلال رئاسـته لتحرير مجلة الفكر المعاصر ومن خلال الإشراف على العديد من السلاسـل الفكرية وخاصة سلسـلة عالم المعرفة الكويتيـة في الوصول بفكره التنويري إلى المثقف العربي و إلى الإنسـان العربي العادي أينما كان موقعه.

ثانياً: صورة عامة لحياته ونشاطه الفكري

- ولد في الأول من ديسمبر عام 1927م بمدينة بور سعيد.
- حصل على ليسانس الفلسفة من كلية الآداب - جامعة القاهرة عام 1949م.
- حصل على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة عين شمس عام 1956م وهو لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره.
- تدرج في الوظائف الأكاديمية بالجامعة كمدرس فأستاذ مساعد فأستاذ للفلسفة وتولى رئاسة قسم الفلسفة بجامعة عين شمس. وفي نفس الوقت شارك بإيجابية في الحياة

الثقافية العامة حيث عين رئيسًا لتحرير مجلة الفكر المعاصر وأيضًا لمجلة تراث الإنسانية، فرأس تحرير الأولى بين عامي 1968 - 1972م، ورأس تحرير الثانية بين عامي 1968 - 1970م. وقد أسهمت المجلتان في تربية جيل كامل من الكُتَّاب والباحثين والقراء المثقفين.

- كما عمل باليونسكو وبأكاديمية البحث العلمي.
- وقد انتقل بنشاطه الأكاديمي والثقافي إلى الكويت منذ عام 1977م حيث عمل بها مدة طويلة كأستاذ للفلسفة بجامعة الكويت ورأس قسم الفلسفة بها عدة سنوات، وعمل مستشارًا لأشهر سلسلة كتب في العالم العربي - سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - كما ساهم بالكثير من الدراسات والمقالات في أشهر المجلات والصحف الكويتية والمصرية والعربية.
- توفي د. فؤاد زكريا في الحادي عشر من مارس عام 2010م عن اثنين وثمانين عامًا، وقد استقبلت الأوساط الثقافية المصرية والعربية نبأ وفاته بحزن شديد.

ثالثًا: أطوار حياته الفكرية

وإذا ما نظرنا إلى معالم حياة فؤاد زكريا الزاخرة فسنجد أنها حياة خصبة بكل معنى الكلمة وخاصة في مراحلها الأولى؛ فقد ولد في نهاية عام 1927م، وأنهى تعليمه الجامعي بجامعة القاهرة عام 1949م، ثم حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة عين شمس عام 1956م أي أنه حصل على أعلى مرتبة علمية درجة الدكتوراه وهو لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره.

وانطلق بعد ذلك في المرحلة الثانية من حياته الفكرية أستاذًا جامعيًا مرموقًا وكاتبًا يملأ الحياة الثقافية بمقالاته الرائدة ومداخلاته الهادفة، فعين رئيسًا لتحرير مجلتي «الفكر المعاصر» و«تراث الإنسانية» في نفس الوقت تقريبًا - حيث تولى رئاسة تحرير الأولى فيما بين عامي 68 - 1972م ورئاسة تحرير الثانية فيما بين عامي 68 - 1970م وهما من أهم المجلات الثقافية العربية في تلك الفترة، حيث شكلتا وجدان وفكر جيل بأكمله ولا تزال الحياة الفكرية المصرية تنادي بأعلى صوت بإعادتهما إلى الحياة من جديد.

وفي نفس هذه المرحلة تقريبًا أصدر مفكرنا أهم مؤلفاته العلمية التي كان فيها دائمًا باحثًا عن الحقيقة منذ رسالته للدكتوراه التي كانت عن «مشكلة الحقيقة»، فكتب «نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان» ثم بعد ذلك بفترة «التفكير العلمي» وهما في اعتقادي أهم أعماله الفلسفية المتميزة التي يمكن للمرء منها استخراج جوهر مذهبه الفكري الذي تخلل كل أعماله الأخرى.

وفيما بينهما كتب دراسته الرائعة « لجمهورية أفلاطون» التي قدم بها لترجمته الشهيرة لهذه المحاورة الرائدة في الفكر الفلسفي الأفلاطوني خاصة والفكر الإنساني عمومًا، كما ترجم وقدم «للتساعية الرابعة» لأفلوطين، وكان في دراسته لهذين الفيلسوفين الكبيرين كأحد المتخصصين في الفلسفة اليونانية. كما كتب في الفلسفة الحديثة عن « اسبيتوز»، وفي الفلسفة المعاصرة ترجم كتاب الفيلسوف الإنجليزي الكبير برتراندرسل «حكمة الغرب» في جزئين، وكذلك كتاب هربرت ماركيوز «العقل والثورة». ومن أهم ترجماته الأخرى في ميدان الفلسفة ترجمته لكتاب هنترميد «الفلسفة- أنواعها ومشكلاتها»، وكتاب بول موى «المنطق وفلسفة العلوم» ومحاضرات لأرنولد توينبي.

ولم تقتصر اهتماماته على الفلسفة النظرية، بل إلى جانب إعلائه لقيمة العقل وقيمة العلم في كتاباته الفلسفية وتطبيقاتها كما في كتابه «آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة»، إلى جانب ذلك نجده يهتم أيضًا بالكتابة حول الفن والفنون وبالذات فن الموسيقى حيث كتب «التعبير الموسيقي» و«مع الموسيقى»، كما ترجم في نفس الاتجاه عدة مؤلفات أهمها «الفن والمجتمع عبر التاريخ» لأرنولد هاوزر في مجلدين و«الفيلسوف وفن الموسيقى» لجوليوس، و«النقد الفني» لجيروم، مما يؤكد إيمانه بضرورة إقامة التوازن بين العقل والعاطفة داخل الإنسان، فالفلسفة والعلم يقودانا إلى حياة عقلية وعلمية ناجحة، كما أن الفنون ترقي الذوق وتهذب الوجدان وتسمو بالنفس الإنسانية، إنه ممن أدركوا منذ البداية حقيقة الإنسان الذي هو في النهاية عقل وعاطفة، نفس وجسد.

والملاحظ أن إنتاج د. فؤاد زكريا الفلسفي قد قل في السنوات الأخيرة من حياته أي في المرحلة الثالثة من حياته الفكرية - والتي يمكن ان يؤرخ لها من عام 1977م أي بعد انتقاله إلى الكويت للعمل بجامعتها بثلاث سنوات - وذلك لحساب اهتماماته النقدية العامة إلى جانب

عملـه في الإشراف على العديد من الدوريات التي تصدر عـن الهيئات العلمية المختلفة بدولة الكويت.

وقـد تركزت أعمالـه واهتماماته الفكرية في هـذه الفترة حول متابعة مـا يجرى في وطنه مصر. وفي العالم العربي بوجه عام من أحداث فكرية وسياسية هامة، ويبدو ذلك من كتاباته المتأخرة حيث نجد مصداق ذلك في كتبه «كم عمر الغضب»، «هيكل وأزمة العقل العربية» و«عبدالناصر واليسار المصري» و«الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة»... إلخ.

وبعد، فإن استعراضنا لملامح حياة د. فؤاد الفكرية عبر مراحلها الثلاثة من خلال كتاباته يؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك أنها حياة فكرية خصبة لفيلسوف عربي معاصر.

رابعاً: مؤلفاته ومترجماته

أمـا أهم مؤلفاته التي زادت عن الثلاثـين كتابًا فهي «التفكير العلمي»، و«نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسـان»، ويتضمنان أهم معالم فكره الفلسـفي الذي يمتاز بالاتجاه العلمي العملي. وقد كتب أيضًا عن «اسـبينوزا» و«التعبير الموسيقي» و«مع الموسيقى» و«آراء نقدية في الفكر والثقافة» و«كم عمر الغضب» و«خطاب إلى العقل العربي» و«عبدالناصر واليسار المصري» و«آفاق الفلسفة» و«الصحوة الإسلامية في ميزان العقل»... إلخ.

وفي مجـال الترجمة فله إسـهامه الكبـير الذي يضعه في المرتبة الأولى ممـن نقلوا إلى العربية أعظـم وأدق الأعـمال الغربية في ميادين الفكـر والفن، فقد نقل إلى العربية في مجال الفلسـفة «جمهورية أفلاطون» و«التساعية الرابعة» لأفلوطين، و«العقل والثورة» لهربرت وماركيوز، و«حكمة الغرب» لبرتراندرسـل، و«المنطق وفلسـفة العلوم» لبول موي، و«الفلسفة- أنواعها ومشـكلاتها» لهنترميد، وفي مجال الفـن ترجم «الفن والمجتمع عبر التاريـخ» لأرنولد هاوزر، و«الفيلسوف وفن الموسيقى» لجوليوس، و«النقد الفني» لجيروم.. وغيرها كثير.

وقـد ظل د. فـؤاد زكريـا يمـارس دوره الأكاديمي ونشـاطه الثقافي بين مـصر والكويت ولا ينقطع عن النشاط الفكري العلمي العالمي حيث كان يقوم بزيارات دائمة للبلدان الأوربية ويشـارك بفاعلية في الكثير من الندوات والمؤتمـرات المحلية والدولية، وفي الكثير من الهيئات

والمنظمات العربية. وقد حصل على العديد من الجوائز كان آخرها جائزة سلطان العويس بدولة الإمارات العربية المتحدة في الدراسات الإنسانية والمستقبلية. وجائزة الدولة التقديرية من مصر في العلوم الاجتماعية.

خامساً: رؤيته الفلسفية العلمية العملية

و إذا ما ركزنا الآن على مذهبه الفكري، فسنجد أن ملامحه تتضح في كتابيه الهامين جدًا «نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان» و«التفكير العلمي»؛ ففي الأول نجد تأصيلاً لموقفه الفلسفي، وفي الثاني نجد محاولة جادة لإنقاذ مجتمعنا العربي من تخلفه عبر تطبيق هذا الموقف الفلسفي الذي التزم صاحبه بالعلم كأساس وبالتحليل الموضوعي كمنهج في التعامل مع المشكلات نظرية كانت أو عملية.

إن الموقف الفلسفي للدكتور فؤاد زكريا يتلخص في أنه ينحاز دائمًا إلى الموقف الطبيعي للإنسان العادي إزاء الأشياء والعالم؛ فلقد كتب كتابه «نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان» ليعبر عن وجهة نظر شخص هو حقًا من المتخصصين في الفلسفة، ولكنه لم يفقد أبدًا شعور الإنسان الطبيعي بالدهشة إزاء كثير من قضايا الفلسفة[1]، وهو يواصل تمسكه بدهشته فيقول: «أجل فما زلت حتى اليوم أشعر بالدهشة كلما رأيت فيلسوفًا يشك في وجود العالم الخارجي أو يصفه بأنه «خلق الذات» وهي نفس الدهشة التي اعترتني حينما اطلعت على هذا الرأي لأول مرة في أول كتاب فلسفي قرأته. ومنذ تلك اللحظة الأولى لم أكف عن الاعتقاد بأن في الأمر خطأ، ولكن كانت المشكلة بالنسبة إليَّ هي:أين يكمن هذا الخطأ؟»[2].

إذن لقد اختار مفكرنا منذ البداية أن ينحاز إلى موقف الإنسان الطبيعي منتقدًا موقف الفلاسفة وخاصة المثاليين الذين يشككون في وجود العالم الخارجي و يعتبرونه وهمًا لا أساس له أو يعتبرونه من خلق الذات. وهو يدافع عن موقفه هذا على أساس أن ذلك «الموقف الطبيعي لا يضع مشكلة وجود العالم الخارجي موضع التساؤل بل «يطرح جانبًا» التفكير في احتمال

(1) د.فؤاد زكريا: نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص5 - 6.

(2) نفسه المصدر، ص6.

عـدم وجودالعـالم الخارجي وما فيه من «أشـياء». وهـذا الوقف ليس «سـاذجًا» بالضرورة - كما يصفه معظم الفلاسفة - إذ أن صفة السذاجة مرتبطة بنوع من الجهل أو الغفلة في حين أن كل إنسان حتى الفلاسفة والعلماء يشارك في هذا الموقف في تصرفاته العملية»[1].

إن هـذا الموقف الذي لا ينظر إلى وجود العالم الخارجي بما فيه ومن فيه كمشـكلة تحتاج للمناقشـة والتمحيـص إنما هي في نظر مفكرنـا «الموقف الوحيد الذي يضمن للإنسـان علاقة متسقة مع العالم الخارجي في حين أن المواقف المضادة له أي المثالية إما أن تنتهي إلى إخفاق أو تتوقـف عند نقطة لا يمكنها المضي إلى مـا بعدها فتنتهي إلى نوع من اللاأدرية التي لا تحمل أي أشكال»[2]. إن من أخص خصائص هذا الموقف أنه «موقف عملي وحيوي (بيولوجي) في المحل الأول. إنـه ليـس موقفًا تحليليًا أو نقديًا نحاول فيه إرجاع الظواهر إلى أصلها أو كشـف عللها و إنما يتعلق هذا الموقف بسلوكنا العملي في هذا العالم»[3].

والحقيقة أن مفكرنا في تمسكه بهذا الموقف ودفاعه عنه إنما يتفق مع قلة قليلة من الفلاسفة وخاصة من الإنجليز أمثال جون لوك فيلسوف القرن السابع عشر وجورج مور رائد الفلسفة التحليليـة المعـاصرة، و إن كان د. فؤاد قد تميز بأنـه ظل و إلى آخر حياته عـلى انحيازه الدائم إلى هـذا الموقف الطبيعي واسـتطاع أن يميز بينه وبين الموقف العلمـي[4] في الوقت الذي خلط كثـيرون بين الموقفـين؛ فقد دافع عن اسـتقلال الموقف الطبيعي عن الموقـف العلمي بأن لكل ميدانه، ولذلك انتهى إلى «أن الموقف العلمي حين يستقل عن الموقف الطبيعي لا ينبغي أن يحل محلـه في ميدانه، إذ يظل الموقف الطبيعي محتفظًـا بصلاحيته وقيمته في الميدان المخصص له»[5] وهو بالطبع ميدان الحياة العملية.

إن الفكرة التي ينادي بها مفكرنا ووجد صدى لها في كتابات فلسـفية أخرى ليست دفاعًا

(1) نفسه، ص12.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص13.

(4) يقصد د. فؤاد زكريا هنا بالموقف العلمي موقف العلماء الذي يتحدثون عن العالم بلغتهم الخاصة، وتحليلاتهم المستقلة، وتفسيراتهم للظواهر الطبيعية، والتي تجعل نظرتهم للعالم وللحياة الطبيعية للإنسان نظرة خاصة تختلف عن نظرة الإنسان العادي الذي يعيش داخل الحياة اليومية نفسها.

(5) نفس المصدر السابق، ص20.

مطلقًا عن الموقف الطبيعي و إنما هي دفاع في تلك المجالات التي لا ينبغي أن يزاحم فيها الموقف العلمي والتي ينبغي أن تظل لغة الموقف الطبيعي هذه السائدة فيها، أما في المجالات التي يجب أن تكون الكلمة الأخيرة فيها للعلم فمن السذاجة دون شك أن يحاول أحد الدفاع عن الموقف الطبيعي على حساب العلم»[1].

أما عن علاقة هذا الموقف الطبيعي بالموقف الفلسفي فهي علاقة شائكة لأن الفلاسفة إنما يبدأون من هذا الموقف الطبيعي ذاته ومن موضوعاته ومع ذلك فهم إنما يطالبوننا في معظم الأحيان أن «نصور هذه الموضوعات بصورة مخالفة لصورتها في موقفنا الطبيعي وذلك بقوة قواعد الاستدلال وحدها»[2]، فعلى الرغم من أن الفيلسوف ينطلق من هذا الموقف الطبيعي وموضوعاته إلا «أنه يقدم إلينا تحليلاً يستخدم فيه براعته المنطقية ويخضع فيه للبرهان أو للتفنيد النظري على الإطلاق»[3].

إن ما يعيبه مفكرنا على التحليلات الفلسفية لموضوعات الحياة اليومية التي تمثل جوهر الموقف الطبيعي هو أن الفلاسفة المحترفين يشعرون بنوع من الازدراء حين يقرأون كلمة «الحياة اليومية» لكثرة ما ارتبطت في أذهانهم بمعاني التفاهة والعقم والزوال. وهو يأمل أن يغير الفلاسفة من توجههم هذا في النظر إلى الحياة اليومية وموقف الإنسان الطبيعي العادي حينما يقول: «لكم أود أن تكون الاستجابة الذهنية التي تثيرها كلمة «الحياة اليومية» هي نوع من زيادة الاهتمام بها أو الانتباه إليها طالما أنها تشير إلى أكثر تجاربنا شيوعًا والتصاقًا بنا؟ ولكم أود أن يحل معنى «الأهمية» والشيوع محل معنى «العقم» والعرضية التي ربطه الفلاسفة طويلاً بالحياة اليومية»[4]، إنه حريص إذن على أن يعطي الأهمية والأولوية في التفكير الفلسفي للنظر في الحياة اليومية بحسب مفهوم الإنسان العادي الطبيعي لهذا بعيدًا عن المتاهات التقليدية التي خاض فيها الفلاسفة منذ نشأت المثالية واستهدفت التحقير من شأن موضوعات العالم الطبيعي والتحقير من شأن نظرة الإنسان العادي وموقفه من عالمه اليومي الذي يعيشه.

(1) نفسه، ص22.
(2) نفسه، ص39.
(3) نفسه، ص50.
(4) نفسه، هامش ص53.

ولا شك أن عالم اليوم وضروراته يجعلنا نوافق د. فؤاد زكريا على هذا الموقف الذي يدعو الفلاسفة فيه إلى الاهتمام بحياة الإنسان اليومية ومشكلاتها، وكفى الفلاسفة انغلاقًا على المشكلات الفلسفية النظرية بما تمثله في كثير من الأحيان من رطانة لفظية وتحليلات عقلية مجردة لا تتسق مع مطالب الإنسان العادي وتحقر من شأنها. وها هو مفكرنا يتفاءل بشأن ذلك حينما يقول بثقة «لا يخالجني شك في أن البشرية ستصل يومًا إلى رفض كامل للموقف المثالي بحيث يتسق سلوك الإنسان العملي مع تفكيره النظري»[1].

ولا يكتفي مفكرنا بهذا الإعلان بل نجده يسعى إلى تقديم التطبيق العملي له من خلال كتابه «التفكير العلمي» الذي أرى أنه عظيم الأهمية لكل إنسان عربي معاصر يريد أن تتبوأ أمته مكانها اللائق بين أمم العالم المعاصر. وإنه يقدم في هذا الكتاب تحليلاً متعمقًا - رغم بساطة أسلوبه ووضوح تعبيراته - لمعنى التفكير العلمي يتسق مع موقفه الفلسفي المنحاز إلى الموقف الطبيعي الذي أشرنا إليه في الفقرات السابقة. فمنذ الصفحة الأولى من هذا الكتاب يؤكد ذلك حينما يقول «ليس التفكير العلمي هو تفكير العلماء بالضرورة.. إن التفكير العلمي الذي نقصده لا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها أو حتى مجموعة المشكلات المحددة التي يعالجها العلماء ولا يفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة ولا يقتضي أن يكون ذهن المرء محتشدًا بالمعلومات العلمية أو مدربًا على البحث المؤدي إلى حل مشكلات العالم الطبيعي أو الإنساني، بل إن ما نود أن نتحدث عنه هو ذلك النوع من التفكير المنظم الذي يمكن أن نستخدمه في شئون حياتنا اليومية أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة أو علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا. وكل ما يشترط في هذا التفكير هو أن يكون منظمًا وأن يبنى على مجموعة من المبادئ التي نطبقها في كل لحظة دون أن نشعر بها شعورًا واعيًا مثل استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد، والمبدأ القائل بأن لكل حادثة سببًا وأن من المحال أن يحدث شيء من لا شيء»[2].

إن د. فؤاد زكريا يتحدث عن هذا النوع من التفكير الذي يتبقى في أذهاننا من حصيلة ذلك العمل الشاق الذي قام ولا زال يقوم به العلماء من أجل اكتساب المعرفة والتوصل إلى

(1) نفسه، ص6.

(2) د.فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، مارس 1978م، ص6-5.

حقائـق الأشـياء. إن هذا الأثـر الذي يتبقى في أذهاننا هـو ما يدعوه «بالعقليـة العلمية» التي يمكن أن يتصف بها الإنسان العادي حتى لو لم يكن يعرف نظرية علمية واحدة معرفة كاملة، ولو لم يكن قد درس مقررًا علميًا واحدًا طوال حياته. إنها تلك العقلية المنظمة التي تسعى إلى التحـرر من مخلفات عصور الجهل والخرافة والتي أصبحت سـمة مميزة للمجتمعات التي صار للعلم فيها «تراث» يترك بصماته على عقول الناس»[1].

إن مـا يريده مفكرنا هو أن يكون الإنسـان العادي في موقفـه الطبيعي وفي حياته اليومية متسـلحًا بعلميه التفكير أي يكون قادرًا على ممارسـة التفكير المنظم الذي يرد كل مشكلة إلى أسـبابها ولا يتناقض تفكيره ازاء أي مشـكلة، ويكون قادرًا على التحـرر من الخرافات أو أي أساطير غير مجدية في التعامل مع مشكلات الحياة اليومية.

إنـه يدعونـا إذن إلى «علميـة التفكـير». وفـرق كبـير بـين هـذه الدعوةالتـي خـاض د. فؤاد كل معاركه الفكرية من أجلها وبين «العلمانية» التي يتهمه البعض بها، وينصرفون عن قرائتـه متعللين بأنـه علماني أي ضد الدين! ولعل ذلك الاتهام قد نبع من خلط البعض حتى بين كبار المثقفين والدعاة بين الدعوة إلى العلمية وبين الدعوة إلى ما يسـمى في الغرب «العلمانية»؛ فالعلمانيـة - بفتـح العين والتي ينطقها البعض خطأ بكسرها - غـير العلمانية بكسر العين، فإن كانـت الأولى فنحن معهـم في رفضها ومحاربة ما يبشرون بها في مجتمعاتنا العربية والإسـلامية لأنها إنما نشأت في ظروف غربية بحتة منادية بفصل الدين عن الدنيا عمومًا، حيث دعى دعاتها إلى عدم تدخل رجال الكنيسـة في شـئون الدنيا. ولما كان ديننا الإسلامي هو في الأساس دعوة دينيـة - دنيوية تحض الإنسـان على التعلـم والعلم وتحثه على أن يكـون إيجابيًا خلاقًا في حياته الدنيا، فلا مجال إذن لأن ندعو إلى علمانية الغرب. أما إذا كانت الثانية فأهلاً بها وسـهلاً، وإن كنت أفضل أن نسميها «علمية» وليس «علمانية» حتى لا تختلط مع الأولى.

والحق الذي آراه واضحًا بينًا هو أن كبار مفكرينا وخاصة د. وكي نجيب محمود ود. فؤاد زكريا من دعاة «العلمية» أو «العِلمانية» بكسر العين وهي دعوة إلى استخدام التفكير العلمي في حـل كل مشـكلاتنا وهي دعوة لا تتعارض مع الدين الإسـلامي لا مـن قريب ولا من بعيد

(1) نفسه، ص7.

لأن ديننا الإسلامي قد أعطى الإنسان حرية كاملة في التفكير، بل حثه على أن يكون علميًا في تفكيره وأن يسيطر على مقدرات الطبيعة و يسخرها لخدمته وأن يعرف أسرارها و يعي كل إمكاناتها باستخدام كل أدواته المعرفية من حواس وعقل وأي مناهج تكون وسيلة نافعة له في هذا المضمار.

وها هو مفكرنا يشخص وعلى أساس إدراكه السليم للقضية السابقة مرضًا خطيرًا من أمراض مجتمعنا العربي والإسلامي المعاصر حينما يشير إلى هذين الأمرين اللذين يدخلان حقًا - حسب تعبيره - في باب العجائب حول موقفنا من العلم في الماضي والحاضر؛ الأمر الأول «هو أننا بعد أن بدأنا تراثنا العلمي في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية بداية قوية ناضجة سبقنا بها الحضارة الأوربية الحديثة بقرون عديدة مازلنا إلى اليوم نتجادل حول أبسط مبادئ التفكير العلمي وبديهياته الأساسية. ولو كان خط التقدم ظل متصلاً منذ نهضتنا العلمية القديمة حتى اليوم لكنا قد سبقنا العالم كله في هذا المضمار إلى حد يستحيل معه أن يلحق بنا الآخرون. ومع ذلك ففي الوقت الذي يصعدون فيه إلى القمر نتجادل نحن عما إذا كانت للأشياء أسبابها المحدودة وللطبيعة قوانينها الثابتة أم العكس. وأما الأمر الثاني فهو أننا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمي المجيد ولكننا في حاضرنا نقاوم العلم أشد مقاومة، بل إن الأشخاص الذين يحرصون على تأكيد الدور الرائد الذي قام به العلماء في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية هم أنفسهم الذين يحاربون التفكير العلمي في أيامنا هذه»[1].

وبالطبع فإن هذا الموقف منا يعبر عن تناقض صارخ؛ إذ أن المفروض فيمن يزهو بإنجازاتنا العلمية الماضية أن يكون نصيرًا للعلم داعيًا إلى الأخذ بأسبابه في الحاضر حتى تتاح لنا العودة إلى تلك القمة التي بلغناها في عصر مضى[2].

وفي إطار هذا التشخيص لا ينسى د.فؤاد أن يقدم الحل الذي يجعلنا كأمة متسقين مع أنفسنا إذا أردنا أن نتجاوز مرحلة اجترار الماضي والتغني بأمجاد الأجداد - وكأننا حسب التعبير الوجودي السارتري نتمتع بموهبة خداع النفس فنعدم الحاضر والمستقبل لصالح الماضي - علينا بكل بساطة «أن نحترم العلم في الحاضر مثلما احترمناه في الماضي وأن نعترف بأن هذا الأسلوب

(1) نفسه، ص8 - 9.

(2) نفسه، ص8.

في التفكير الذي كان مصدرًا لاعتزازنا بأجدادنا في الماضي - أي الأسلوب العلمي - ينبغي أن يكون هدفًا من أهدافنا التي نحرص عليها في الحاضر»[1].

وكان د. فؤاد يحس بما يمكن أن يلقيه دعاة العودة إلى الوراء من انتقادات في وجه كلامه السابق بحجة أن ذلك يهدد الدين و يتعارض معه فيجيب عليهم «أن العلم لا يهدد أحدًا و إنما هو في أساسه منهج أو أسلوب منظم لرؤية الأشياء وفهم العالم وكل ما وجه إلى العلم من اتهامات (على اعتبار أنه تسبب في موجات الإلحاد التي سادت أوربا بعد سيادة العلم والعلمانية في الغرب منذ القرن الثامن عشر) إنما هو في واقع الأمر راجع إلى تدخل قوى أخرى لا شأن للعلم بها تفسد تأثير العلم أو تسيىء توجيه نتائجه»[2].

وبعد أن ينفي مفكرنا تلك التهم عن العلم يعيد و يكرر تأكيده الذي لم يمل من تكراره طوال العقود الثلاثة الماضية حول ضرورة الأخذ بأسلوب التفكير العلمي لأن «أي شعب يريد أن يجد له مكانًا على خريطة العالم المعاصر لا يملك إلا أن يحترم أسلوب التفكير العلمي و يأخذ به.. فعلى مستوى المجتمعات البشرية فقد أصبحت النظرة العلمية ضرورة لا غناء عنها في أي مجتمع معاصر. وحسبنا أن نشير - كمثال على ذلك - إلى أن مبدأ التخطيط - وهو مبدأ أساسي حاولت بعض الأنظمة الاجتماعية انكار أهميته في بادئ الأمر ولكنها اضطرت إلى تطبيقه على نطاق واسع فيما بعد - هذا المبدأ إنما هو تطبيق مباشر لمفهوم التفكير العلمي المنهجي من أجل حل مشكلات المجتمع البشري. ولقد أصبح من المألوف في عالمنا المعاصر أن نسمع تعبيرات مثل التخطيط الاقتصادي أو الخطة الاقتصادية والتخطيط الاجتماعي والتخطيط التربوي والعلمي والتخطيط الثقافي وكلها تعبيرات تدل على اعتراف المجتمع الحديث بأن ميادين أساسية للنشاط البشري كالاقتصاد والشئون الاجتماعية والتربية والعلم والثقافة أصبحت توجه بطريقة علمية منظمة بعد أن كانت تترك لتنمو على نحو تلقائي.. إن كل نجاح يحرزه التخطيط في عالمنا المعاصر إنما هو نجاح للنظرة العلمية في تدبير شئون الإنسان»[3].

ولا ينبغي أن نتصور أن الأخذ بالأسلوب العلمي في التفكير والتخطيط مسألة سهلة بل

(1) نفسه، ص10.

(2) نفسه، ص12؛ وانظر أيضًا، ص80 من نفس المصدر.

(3) نفسه، ص12 - 14.

هي في الواقع أمر شاق على الإنسان؛ ومصداق ذلك يبدو في أن الإنسان طوال الجزء الأكبر من تاريخه قد أثر - كما يقول مفكرنا - ألا يواجه الواقع مواجهة مباشرة، وأن يستعيض عنه بأخيلته أو صوره الذاتية.. فالمواجهة المباشرة للواقع فيها صعوبة ومشقة وتحتاج من الإنسان إلى بذل جهد كبير في ترويض ذاته على طرح ميولها الخاصة جانبًا وقبول الظواهر على ما هي عليه ثم استخلاص القانون الكامن وراء هذه الظواهر وهو أمر يقتضي مستوى عاليًا من التجريد.

وهكذا يمكن القول - كما يضيف د. فؤاد - أن اتجاه الإنسان نحو العلم ينطوي على قدر كبير من التضحية بالراحة والهدوء والاستسلام للخيال السهل الطليق كما ينطوي على عادات عقلية فيها قدر كبير من الصراحة والقسوة على النفس.. إن العلم يظهر منذ اللحظة التي يقرر فيها الإنسان أن يفهم العالم كما هو موجود فعلاً لا كما يتمنى أن يكون منذ اللحظة التي يتجاوز فيها العقل البشري مرحلة الطفولة التي يتصور فيها كل شيء وفقًا لأمانيه إلى مرحلة النضج التي تتيح له أن يعلو على الخلط بين الواقع والحلم أو الأمنية[1].

وأعتقد أن أمتنا العربية الإسلامية، وبعد ما عانيناه من تأخر وجمود طوال عدة قرون، قد آن لها أن تنفض عنها غبار الخرافة والتفكير الأسطوري، ويزيح أبناؤها عن كاهلهم طفولية التفكير والجري وراء تحقيق الرغبات والأماني الفجة وليتجاوزوا كل أنواع الخلط ويعيشوا مرحلة التضحية بكل ذلك ويمارسوا القسوة على أنفسهم متحلين بأكبر قدر من الموضوعية والصراحة مع النفس في سبيل ذلك الهدف الأسمى، هدف كسب معركة التحدي الحضارية التي ليس لها من باب سوى باب الأخذ بالأسلوب العلمي في التفكير.

إن د. فؤاد زكريا يدعونا كأفراد وشعوب عربية إسلامية ومعه كل الحق في ذلك بأنه «قد آن الآوان لأن نعترف في شجاعة وحزم بأن عصر التلقائية والعشوائية قد ولى وبأن النظرة العلمية إلى شئون الحياة في ميادينها كافة هي وحدها التي تضمن للمجتمع أن يسير في طريق التقدم خلال ما تبقى من القرن العشرين وهي الحد الأدنى الذي لا مفر من توافره في أي مجتمع يود أن يكون له مكان في القرن الحادي والعشرين الذي أصبح أقرب إلينا مما نظن».

(1) انظر: نفس المصدر، ص58 - 59.

ويضيف في نغمة يشوبها بعض اليأس مما يحدث حوله من ظواهر معادية للتفكير العلمي في مجتمعاتنا العربية المعاصرة «وإذا كان بعض من يعيشون معنا في الربع الأخير من القرن العشرين غير مقتنعين حتى اليوم بجدوى الأسلوب العلمي في معالجة الأمور، وإذا كانوا يضعون العراقيل أمام التفكير العلمي حتى اليوم فليفكروا لحظة في أحوال العالم في القرن القادم الذي سيعيش فيه أبناؤهم.. إن مجرد البقاء في المستقبل دون نظرة علمية وأسلوب علمي في التفكير سيكون أمرًا مشكوكًا فيه»[1].

إن هذه الكلمات الواضحة والتي كتبها مفكرنا الكبير في عام 1977م تؤكد كل التأكيد أنه مهموم بقضايا أمته وحريص كل الحرص على مستقبلها. وأن أمة لا تفكر إلا في ملء بطون بنيها في الحاضر دون أن تخطط لمستقبل الأبناء وأبناء الأبناء بطريقة علمية لهي أمة لا تستحق أن تعيش حاضرها، ولا أن تتباهى بماضيها الذي لم يكن أبدًا من صنع المعاصرين من أبنائها، بل صنعه أناس آمنوا بربهم حق الإيمان وعرفوا أن دينهم الحنيف إنما هو دعوة صريحة إلى العلم والعمل، فوازنوا بين أداء الفرائض والأخذ بأسباب التقدم فكان ما أرادوا من ريادة ومجد وتقدم في كل الميادين.

أما نحن فلا نزال نعيش في غياهب الماضي غير عابئين بما يحدث حولنا من تقدم علمي جبار تحرزه الأمم الأخرى، وقد أحرزوه باتباعهم للأسلوب العلمي في التفكير حتى في حياتهم اليومية العادية، فهل نحن فاعلون مثلما يفعلون ومثلما كان يفعل أجدادنا العظام الذين نتباهى بإنجازاتهم ولا نحاول محاذاتهم لا في طريقة تفكيرهم ولا في أسلوبهم العلمي في التعامل مع المشكلات!!

هل نحن فاعلون أم سنظل نفكر ونتعامل مع المشكلات بطريقتنا العشوائية التلقائية العفوية، وتضيع بذلك صيحات فلاسفتنا المخلصين هباء!!. إن أعظم تكريم لهؤلاء المفكرين - كما هو الحال لدى أبناء كل الأمم المتحضرة المتطورة - أن نتفاعل مع آرائهم وأن تتحول صيحاتهم التنويرية الهادية إلى منهج حياة تتغير على أساسه حياتنا نحو الأفضل.

(1) نفس المصدر، ص16.

أهم المصادر والمراجع

د.فؤاد زكريا:

- نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.
- التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، مارس 1978م.